

سفارة ألمانيا
إلى بلاط قرطبة

في عهد عبد الرحمن الناصر
للإستاذ محمد عبد الله عنان

في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كانت أسبانيا المسلمة (الأندلس) قد بلغت ذروة قوتها ؛ وكانت إلى جانب الدول النصرانية الثلاث : الدولة البيزنطية ، ومملكة الفرنج ، والامبراطورية الألمانية ، رابعة الدول الأوربية العظمى ؛ بل ربما كانت يومئذ أعظم الدول بما اجتمع لها من عناصر القوة ، ومنعة الجانب ، وروعة الملك ، ورفيع الحضارة . كانت حقبة زاهرة ، تماقت فيها في قيادة الغرب الإسلامي ثلاثة من أعظم قادة الإسلام وساسته ، هم عبد الرحمن الناصر ، فولده الحكم المستنصر ، ثم الحاجب المنصور . وكان عهد الناصر بلا ريب أسطع هذه العهود وأعظمها ، وفيه بلغت الأندلس ذروة القوة والازدهار ، وفيه قامت الخلافة الأموية في الغرب قوية موطدة ، بعد أن اختفت من الشرق قبل ذلك بمائة وعشرين عاماً . وكانت قرطبة في عهد الخلافة الأموية عاصمة الغرب الفكرية والاجتماعية ؛ وكانت في الطرف الآخر من أوروبا تبث أضواء حضارة جديدة لم تلبث أن لعبت دورها العظيم في تكوين الحضارة الأوربية

وقد تبوأ أسبانيا المسلة مركزها الدولي في الغرب . كان بلاط قرطبة يرتبط مع معظم الدول الأوربية بملائق دبلوماسية منظمة ؛ وكان أخص هذه العلاقات مع الدولة البيزنطية في الشرق ، ومملكة الفرنج في الغرب . ومنذ عهد عبد الرحمن بن الحكم (عبد الرحمن الثاني أو الأوسط) نرى سفارات الدول النصرانية تتوالى على بلاط قرطبة ؛ وكان أهم هذه السفارات يومئذ سفارة نيوفيلوس امبراطور قسطنطينية في سنة ٢٢٥ هـ (٨٣٦ م) ومقصدها أن تعقد الدولة البيزنطية مع للدولة الأموية تحالفاً على الدولة العباسية ؛ ورد عبد الرحمن على هذه السفارة بأن أرسل وزيره يحيى النزال سفيراً إلى الامبراطور لينظم بينهما علاقات

الصداقة والتحالف . وتبادل عبد الرحمن بن الحكم أيضاً السفارة مع ملك النورمانين عقب الغزوات التي قام بها النورمانيون في الأندلس ، وانتهت بردهم وهزيمتهم

وفي عهد عبد الرحمن الناصر تواتت سفارات الدول النصرانية على بلاط قرطبة ، وكان أشهرها وأهمها سفارة قسطنطين السابع امبراطور قسطنطينية في شهر صفر سنة ٣٣٨ هـ (٩٥٠ م) .
وتقدم إلينا الرواية الإسلامية وصفاً شائقاً لتلك السفارة الشهيرة ، وتصف لنا احتفال الناصر باستقبالهم في أروع المظاهر والرسوم ، وتنقل إلينا أقوال الخطباء المسلمين في ذلك الحفل الباهر

وفي سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٦ م) وفدت على الناصر سفارة من
أوتو الكبير امبراطور ألمانيا ؛ وكان يومئذ أعظم أمراء النصرانية
كما كان الناصر أعظم أمراء الإسلام . وكان بين الملكين
العظيمين علائق ومراسلات منتظمة ، بيد أنها لم تكن ودية دائماً .
ولا تحدثنا الرواية الإسلامية عن سفارة أوتو (أو أوتون) إلى
الناصر بأكثر من الإشارة إليها ؛ بيد أنها كانت سفارة هامة ،
وكانت ذات غاية خاصة وذات مغزى خاص . وكان سفير
الامبراطور إلى الخليفة حبراً من أكابر الأحرار هو يوحنا أسقف
جورنسي . وترك لنا يوحنا تفاصيل سفارته في ترجمة حياته (Vita)
وخلاصتها أنه سار إلى قرطبة ليسرى لدى الناصر في أمر المستعمرات
والمصائب المسلمة التي انتشرت في أنحاء سافوا ، وفي كثير من
آكام الألب . وكانت غزواتها الناهبة تمتد حتى شمال سويسرة ،
وكان أمراء النصرانية التي تهدد هذه المستعمرات أملاً لهم
ورعاياهم قد فزعوا إلى الامبراطور أوتو باعتباره زعيم النصرانية
وأقوى أمراءها ، وطلبوا منه أن يتوسط لدى خليفة المسلمين
عبد الرحمن الناصر فيستعمل نفوذه السياسي والروحي لإجلاء
هذه المستعمرات عن ممالكها أو على الأقل لوقف اعتدائها وعبثها .
فقرل الامبراطور عند تضرعهم وبث سفيره إلى الناصر ، فقص
يوحنا إلى قرطبة عن طريق فرنسا ، ومعه طائفة من التحف والهدايا
طبقاً لرسوم العصر . ولما وصل إلى دار الخلافة استقبل بحفاوة كبيرة ،
وأُتزل في منزل خاص ؛ ولكنه لم يقدم إلى الناصر في الحال ،
بل استبقى مدي حين في شبه اعتقال محوطاً بالأكرام والرعاية ؛

وزعماء القبائل من العرب . وكان من آثار هذه السياسة أن جعل الناصر بطاقته من الصقالبة المستعربين ، ورفع كثيراً منهم إلى مناصب النفوذ والثقة في الحكومة وفي الجيش . وكان الناصر يخشى منافسة الرؤساء ذوي العصية ويقصمهم عن كل نفوذ ، ويخضعهم لهؤلاء الصقالبة الذين اتخذهم في يده آلات طائفة تعبر عن خطته ورغبته . وكان لهذه السياسة أثرها في توطيد سلطان العرش ، والقضاء على سلطة الزعماء المحليين ، وعلى مطامع الرؤساء المتطلعين ، ولكنها كانت من جهة أخرى خطراً على العرش إذ عرضته لسخط الأشراف والزعماء العرب ، وخطراً على الجيش إذ كان سواد ضباطه من العرب الذين يمتزجون بمصبتهم ويسوءهم أن تضار هذه المصيبة ويمتد على . وظهر أثر هذه السياسة في أواخر حكم الناصر إذ ظهرت أعراض الوهن والانحلال في الجيش ؛ ثم ظهر خطرها على العرش فيما بعد إذ غدا عرضة لمطامع المتطلعين والمتنافسين

تلك هي قصة هذه السفارة الشهيرة التي وجهها الإمبراطور أوتو الكبير إلى عبد الرحمن الناصر ، وتشير الرواية الإسلامية إليها في عبارات موجزة^(١) مما يدل على أنها لم تفتن إلى أهميتها السياسية والاجتماعية ، ذلك لأنها كانت سفارة من نوع خاص ، ولم تكن متعلقة بالشئون والعلاقات الدبلوماسية العامة ، ولم تكن الإمبراطورية الألمانية الناشئة مشهورة في بلاط قرطبة شهرة الدولة البيزنطية أو مملكة الفرنج ، ولكن التفاصيل الشائقة التي تقدمها إلينا الرواية الكنسية تدل بأهميتها وطرافتها ، وأول ما تدل عليه ما كان لبلاط قرطبة في عهد الناصر من الهيبة والنفوذ حتى في دول كالمانيا لم تكن تربطها بالأندلس مصالح أو علاقات دبلوماسية مباشرة ؛ بيد أن أهم ما تدل به هذه السفارة هو صفة الزعامة والارشاد التي كان يبدو بها بلاط قرطبة ، فقد رأينا الناصر يلقى درساً في السياسة والادارة على الأباطور أوتو ، وهي صفة كان في ظروف الأندلس يومئذ ما يبرر اتخاذها ، فقد كانت الأندلس عندئذ في أوج قوتها وعظمتها ، وكانت حكومة قرطبة في نظمها السياسية والادارية والاجتماعية نموذجاً لأعظم

ويوضح لنا يوحنا بواعث هذا الاعتقال فيقول لنا : ان الخليفة كان يحقد على الإمبراطور لأنه كان قد ترضى للإسلام في بعض كتبه إلى الناصر ، واعتقل مدى حين سفيراً نصرانياً كان الناصر قد أوفده إلى بلاطه ، فرأى أن يقابل تصرف الإمبراطور بمثله ، ويمتقل سفيره أعني يوحنا حتى يتحقق من عواطفه ونياته . وبعث الناصر إلى الإمبراطور سفيراً ، واختار لهذه السفارة نفساً من رعاياه النصراني اتباعاً لتقليد جرى عليه الخلفاء في معظم سفاراتهم إلى القصور النصرانية . وكان أوتو يومئذ مشتغلاً ببعض الحروب الداخلية ، فأبدى تساهلاً في قبول وجهات نظر الخليفة ، ولم يثر من المجادلات ما اعتاد أن يشهده ، وأكد صداقته لخليفة المسلمين . وعاد السفير إلى قرطبة يحمل إلى الناصر تحيات أوتو وتأكيده الودية ، فارتاح الناصر لهذه النتيجة ، وأذن باستقبال يوحنا سفير الإمبراطور . واستقبل يوحنا استقبالا فخماً ظهرت فيه عظمة البلاط الأموي ، وتحدث إلى الناصر عن مهمته وغاية سفارته . ولسنا نعرف ماذا كانت نتائج هذه السفارة ، لأن يوحنا لم يتحدثنا عن ذلك في روايته ؛ ولكن المرجح أن وجهة النظر التي أبدتها حكومة قرطبة هي أنها ليست لها أية علاقة بالمستعمرات العربية في غالييس وسويسرة ، وأنها لا تتحمل تبعه أعمالها ، ولا تستطيع أن تتدخل لديها . وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات ، مما يدل على أن حكومة قرطبة لم تكن تعنى كثيراً بشأنها ، وإن كانت بلا ريب تنظر إلى غزواتها في الأراضي النصرانية بعين العطف والتأييد

على أن الرواية الكنسية من جهة أخرى تحدثنا عما أفضى به الناصر إلى يوحنا من الملاحظات السياسية والادارية ؛ فقد بسط ليوحنا خطته في السياسة العامة ، وأنمى باللائمة على الإمبراطور أوتو لأنه يضع ثقته في أشرافه ؛ ومثل هذه السياسة لا تزيد الاشراف إلا غروراً ، ثم تنتهي بهم في أواخر الأمر إلى العصيان والثورة . ولهذا الملاحظة السياسية التي توردها الرواية الكنسية عن الناصر أهمية خاصة ، وهي ليست إلا صدى لسياسة الخلافة الأموية وسياسة الناصر ذاته ؛ ذلك أن الناصر كان يعتمد في تنفيذ سياسته على طبقة الموالي والصقالبة ، ولا يثق بالاشراف

(٢) راجع فتح الطب ج ١ ص ١٧١ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤